مجلة

آداب الرافدين

علميّة محكّمة

فصليّة

تصدر عن كلية الآداب

العدد: السبعون

السنة: الرابعة والأربعون

الموصل

١٤٣٥هـ / ٢٠١٤م

الهيئة الاستشارية

- أ.د. هاشم يحيى الملاح – جامعة الموصل (تاريخ إسلامي)
- أ.د. عماد الدين خليل عمر – جامعة الموصل (تاريخ إسلامي)
- أ.د. إبراهيم خليل العلاف – جامعة الموصل (تاريخ حديث)
- أ.د. محي الدين توفيق إبراهيم – جامعة الموصل (لغة عربية)
- أ.د. صالح علي الجميلي – جامعة تكريت (أدب عربي)
- أ.د. بشرى حمدي البستاني – جامعة الموصل (أدب عربي)
- أ.د. عباس جودة رحيم – جامعة الموصل (لغة إنكليزية)
- أ.د. حسن رضا النجار – الجامعة المستنصرية (معلومات ومكتبات)
- أ.د. ناطق صالح مطلوب – جامعة الموصل (تاريخ إسلامي)
- أ.م. موفق ويسي محمود – جامعة الموصل

الأفكار الواردة في المجلة جميعا تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المجلة

توجه المراسلات باسم رئيس هيئة التحرير

كلية الآداب / جامعة الموصل – جمهورية العراق

E-mail: adabarafidayn@yahoo.com

آداب الرافدين

مجلة محكّمة تعنى بنشر البحوث العلمية الموثّقة في الآداب والعلوم الإنسانية باللغة العربية واللغات الأجنبيَّة

العدد: السبعون السنة: الرابعة والأَربعون

رئيس التحـــرير

أ.د. باسم إدريس قاسم

سكرتير التحرير

أ.م.د. محمد سعيد حميـــــد

مدير التحرير

م.م. شيبان أديب رمضان الشيباني

هيئة التحرير

أ.د. مؤيد عباس عبد الحســـــن أ.د. علي أحمد خضر المعمـــــاري

أ.د. عصمت برهان الدين عبد القادر أ.م.د.محمـــــــد عبد الله داؤد

أ.م.د.عمار عبد اللطيف زين العابدين

المتابعة والتصحيح اللغوي

م.د. علي كنعـــان بشير – اللغـــــة العربيـــــة

م. أسامة حميـــد إبراهيم العجيلي – اللغة الإنكليزيـــــة

م. مترجم.إيمان جرجيس أَميـــــن – المتابعـــــــــــة

م. مترجم.نجلاء أَحمد حســـين – المتابعـــــــــــة

قواعـــــد النشـــــر فـــي المجلـــــة

- يقدم البحث مطبوعاً بدقة، ويكتب عنوانه واسم كاتبه مقروناً بلقبه العلمي للانتفاع باللقب في الترتيب الداخلي لعدد النشر.
- تكون الطباعة القياسية بحسب المنظومة الآتية: (العنوان: بحرف ١٦/ المتن: بحرف ١٤/ الهوامش: بحرف ١٢)، ويكون عدد السطور في الصفحة الواحدة: (٢٧) سطراً تحت سطر ترويس الصفحة بالعنوان واسم الكاتب واسم المجلة، ورقم العدد وسنة النشر، وحين يزيد عدد الصفحات في الطبعة الأخيرة داخل المجلة على (٢٥) صفحة للبحوث الخالية من المصورات والخرائط والجداول وأعمال الترجمة، وتحقيق النصوص، و (٣٠) صفحة للبحوث المتضمنة للأشياء المشار إليها، تتقاضي هيئة التحرير مبلغ (٢٠٠٠) دينار عن كل صفحة زائدة فوق العددين المذكورين، فضلاً عن الرسوم المدفوعة عند تسليم البحث للنشر والحصول على ورقة القبول؛ لتغطية نفقات الخبرات العلمية والتحكيم والطباعة والإصدار .
- ترتب الهوامش أرقاماً لكل صفحة، ويعرّف بالمصدر والمرجع في مسرد الهوامش لدى وورد ذكره أول مرة، ويلغى ثبت (المصادر والمراجع) اكتفاءً بالتعريف في موضع الذكر الأول .
- يقدم الباحث تعهداً عند تقديم البحث يتضمن الإقرار بأنَّ البحث ليس مأخوذاً (كلاً أو بعضاً) بطريقة غير أصولية وغير موثقة من الرسائل والأطاريح الجامعية والدوريات، أو من المنشور المشاع على الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت).
- يحال البحث إلى خبيرين يرشحانه للنشر بعد تدقيق رصانته العلمية، وتأكيد سلامته من النقل غير المشروع، ويحال – إن اختلف الخبيران – إلى (محكم) للفحص الأخير وترجيح جهة القبول أو الرد.
- لا ترد البحوث إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر .
- يتعين على الباحث إعادة البحث مصححاً على هدي آراء الخبراء في مدة أقصاها (شهر واحد)، ويسقط حقه بأسبقية النشر بعد ذلك نتيجة للتأخير، ويكون تقديم البحث بصورته الأخيرة في نسخة ورقية وقرص مكتنز (CD) مصححاً تصحيحاً لغوياً وطباعياً متقناً، وتقع على الباحث مسؤولية ما يكون في بحثه من الأخطاء خلاف ذلك، وستخضع هيئة التحرير نسخ البحوث في كل عدد لقراءة لغوية شاملة أخرى، يقوم بها خبراء لغويون مختصون زيادة في الحيطة والحذر من الأغاليط والتصحيفات والتحريفات، مع تدقيق الملخصين المقدمين من جهة الباحث باللغة العربية أو بإحدى اللغات الأجنبية، وترجمة ما يلزم الترجمة من ذلك عند الضرورة.

((هيئة التحرير))

المحتويـــــــــات

العنـــــــــوان	الصفحـــة
المَرْوِيُّ عن (رُؤْبَةَ بنِ العَجّاجِ) من القِراءاتِ القُرْآنيَّة أ.د. عبد العزيز ياسين عبد الله	١ – ١٦
تعليل ابن عاشور لوجوه الإعجاز في مقدمة تفسيره العاشرة أ.م.د.عبد الستار فاضل خضر النعيمي	١٧ – ٥٠
الإعواز في بيان علاقات المجاز لأحمد بن شهاب الدين أحمد بن محمد السجاعي الأزهري المتوفى سنة (١١٩٧) من الهجرة أ.م.د. عبد الكريم علي عمر المغاري	٥١ – ٦٦
التدرُّج الدلالي تعريف وتأصيل أ.م د.روعة محمود محمد علي و م.م.غزوان محمد سلمان	٦٧ – ٨٢
التاريخ وثيقةً شعرية في قصيدة (تواريخ) لجواد الحطاب أ.م.د. أحمد جارالله ياسين	٨٣ – ٩٦
النَّص وسيرورة الذات عند جوليا كرستيفا د.حليمة الشيخ	٩٧ – ١٢٤
نيسابور من مطلع القرن الثالث الهجري حتى الاحتلال المغولي (دراسة في التعاقب السياسي) م.د. حسين ابراهيم محمد الجبراني و م.د. مصطفى هاشم حنون	١٢٥ – ١٥٢
غيلان الدمشقي وآراؤه العقدية أ.م.د.نايف محمد شبيب المتيوتي	١٥٣ – ١٦٦
اسم المفعول في اللغات العاربة دراسة مقارنة أ.م.د. أمين عبدالنافع أمين	١٦٧ – ١٨٦
الأفكل في التراث اللغوي العراقي القديم دراسة لغوية دلالية م. حسنين حيدر عبد الواحد	١٨٧ – ١٩٨

طرائق الطعن في الأحكام القانونية خلال العصر البابلي القديم أ.م.د. محمد عبدالغني البكري	١٩٩ – ٢٣٢
نصوص مسمارية غير منشورة من العصر البابلي القديم من المتحف العراقي م. خالد علي خطاب	٢٣٣ – ٢٤٤
العلاقات الليبية مع الولايات المتحدة الأمريكية في عهد يوسف باشا القرمانلي ١٧٩٥م–١٨٣٢م م.د.محمد علي محمد عفين	٢٤٥ – ٢٨٢
التنقية والاستبعاد للكتب الطبية في مكتبة المعهد التقني / الموصل م.د.بديعة يوسف عبد الرحمن خدان	٢٨٣ – ٣١٦
الفساد الإداري في العراق – بين رواسب المجتمع وإفرازات الاحتلال دراسة تحليلية في علم الاجتماع السياسي أ.د. علي أَحمد المعماري و أ.م. أَحمد عبد العزيز	٣١٧ – ٣٥٢
الآثار المجتمعية لصور العمل الجديدة في ظل تكنولوجيا الاتصالات – دراسة ميدانية في شركة نينوى للأدوية والمستلزمات الطبية في مدينة الموصل أ.م.د. جمعة جاسم خلف	٣٥٣ – ٣٩٠

تعليل ابن عاشور لوجوه الإعجاز في مقدمة تفسيره العاشرة

أ.م.د.عبد الستار فاضل خضر النعيمي*

تأريخ التقديم:٢/٤/٢٠١٤ تأريخ القبول:٢٥/٥/٢٠١٤

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد:

فإن مما نال اهتمام العلماء والمفسرين قديما وحديثا تعليل وجوه إعجاز القرآن الكريم وكثرت فيه أقوالهم واختلفت فيه مذاهبهم، فكان من آرائهم ما رمي بالفساد والبطلان كالقول (بالصرفة) الذي حمل لواءه إبراهيم بن سيار النظام المعتزلي (ت ٢٣١ هـ) وكان منها ما لقي الرضى ، ورُزق القبول ، وذهب إليه جمهورهم، وهو القول بأن إعجاز القرآن يكمن في (نظمه) ابتداء من جذوره عند سيبويه(ت١٨٠هـ)، ومرورا بالجاحظ (ت٢٥٥هـ)، ثم القاضي عبدالجبار الهمذاني (ت٤١٥هـ) ، واستقرارا عند عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١ هـ أو٤٧٤ هـ) في نظريته المعروفة بـ (نظرية النظم) التي نظّر لها في كتابه (دلائل الإعجاز) ، وبناها على توخي معاني النحو، وتولى تطبيقها الزمخشري (ت٥٣٨هـ) في تفسيره (الكشاف)، ومن اعتمدوا عليه، كالبيضاوي (ت٧٩١ هـ) في تفسيره (أنوار التنزيل)، وأبي السعود العمادي(ت ٩٨٢هـ) في تفسيره (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) .

ومن تفاسير المحدثين التي نال فيها نظم القرآن اهتماما كبيرا (تفسير التحرير والتنوير) للطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣ هـ) ، فهو من أعاجيب زمانه ، وممن فتح الله عليهم أنواره ، بحيث صار مورد الباحثين، ومحط رحال الدارسين ، فكتبوا عنه البحوث والدراسات، فمنهم من

* قسم اللغة العربية/ كلية الآداب / جامعة الموصل .

درس منهجه [١]، ومنهم من تناول بلاغته[٢]، ومنهم من عني بلغته ودلالة الألفاظ وأثرها في هذا التفسير الجليل[٣]، ومنهم من عني بنحوه[٤]، ومنهم من درس نقده للتفاسير قبله وتعقيباته عليهم[٥]، وغير ذلك من الدراسات التي تناولت جوانب متنوعة من هذا التفسير، ولكن تبقى فيه جوانب فيها حاجة للكتابة عنها والبحث فيها .

ومما لفت نظري عند ابن عاشور تعليله لوجوه الإعجاز القرآني في المقدمة العاشرة من تفسيره التي خصصها لإعجاز القرآن ، ذلك التعليل الذي أعده فتحا من الله له، ودليلا على صدق نيته وإخلاص عمله .

ورأيت أنه لم يتناوله أحد من الباحثين بدراسة خاصة حسب علمي، وإنما كان الكلام عليه ضمنا في قسم من الدراسات التي أشرت إلى طرف منها قبل قليل ؛ ولذا رأيت الكشف عن هذا الجانب في هذا البحث بعرض جديد يكمن في كوني اعتمدت فهمي لعبارات ابن عاشور وتحليلها منطلقا من الخبرة المتراكمة في معاناة كتب العلماء عامة والمفسرين خاصة ، فهو عمل استنباطي في ضوء القراءة والتأمل والتحليل لما دونه ابن عاشور في هذا الجانب في مقدمة تفسيره العاشرة ، وأسأله تعالى التوفيق لما يرضيه ، فهو حسبي ونعم الوكيل.

---

(١) ينظر: ابن عاشور ومنهجه في التفسير ، سعيد مطلك مدب ، رسالة ماجستير ، كلية الشريعة ، جامعة بغداد ،١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

(٢) ينظر: الاستئناف البياني في القرآن الكريم دراسة في تفسير ابن عاشور التحرير والتنوير ، يونس فرج سبهان الجبوري ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ١٤٢٧هـ . ٢٠٠٦م .

(٣) ينظر: أثر الدلالات اللغوية في التفسير عند الطاهر بن عاشور ، د. مشرف بن أحمد الزهراني ، ط ١ ، مؤسسة الريان ، بيروت . لبنان ، ١٤٣٠ هـ . ٢٠٠٩م.

(٤) ينظر: الدراسات النحوية في تفسير التحرير والتنوير ، ثامر نجم عبدالله ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٤١٤هـ /١٩٩٣م.

(٥) ينظر: تعقيبات ابن عاشور على الزمخشري في تفسيره التحرير والتنوير ، فاضل يونس حسين البدراني ، رسالة ماجستير ، كلية التربية ، جامعة الموصل ، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

أصل العناية بوجوه الإعجاز:

يرى ابن عاشور أن العناية ببيان وجوه إعجاز القرآن الكريم نبعت من أصل كبير من أصول الإسلام وهو كون القرآن المعجزة الكبرى للنبي (صلى الله عليه وسلَّم) فيقول : (ثم إن العناية بما نحن بصدده من بيان وجوه إعجاز القرآن إنما نبعت من مختزن أصل كبير من أصول الإسلام ، وهو كونه المعجزة الكبرى للنبي(صلى الله عليه وسلَّم))[١] وهو يشير إلى ميزة هذه المعجزة كونها المعجزة الباقية ، والتي تحدى بها الرسول(صلى الله عليه وسلَّم) معانديه صراحة ، فيقول : (وكونه المعجزة الباقية ، وهو المعجزة التي تحدى بها الرسول معانديه تحديا صريحا)[٢]، مستدلا على ذلك بقوله تعالى :﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ العنكبوت: ٥٠ - ٥١ ، ثم ينقل عن الباقلاني (ت٤٠٣هـ) تصديَه للاستدلال على ذلك في كتابه (إعجاز القرآن) متصرفا بعض الشيء في عبارته ، ومبينا خلاصة قوله الطويل ، فيقول : (ولقد تصدى للاستدلال على هذا أبوبكر الباقلاني في كتاب له سماه أو سمي إعجاز القرآن ، وأطال ، وخلاصة القول فيه أن رسالة نبينا عليه الصلاة والسلام بنيت على معجزة القرآن ، وإن كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة ، إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات وأحوال ، ومع ناس خاصة ، ونقل بعضها متواترا ، وبعضها نقل نقلا خاصا ، فأما القرآن فهو معجزة عامة ، ولزوم الحجة به باق من أول ورودها إلى يوم القيامة ، وإن كان يعلم وجه إعجازه من عجز أهل العصر الأول عن الإتيان بمثله ، فيغني ذلك عن نظر مجدد ، فكذلك عجز أهل كل عصر من العصور التالية عن النظر في حال إعجاز العصر الأول)[٣] ، وهذا أحد دليلي إعجاز القرآن الكريم ، وهو الواقع العملي ، أي أن الواقع يشهد بإعجاز القرآن ؛ إذ إنه منذ نزول القرآن إلى يومنا هذا عجز الناس جميعا عن أن يأتوا بمثل القرآن ، ولاسيما العرب

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ، محمد الطاهر ابن عاشور (١٣٩٣هـ)، دار سحنون ، تونس ، د . ت: ١٠٢/١.
(٢) م ، ن : ١/ ١٠٢.
(٣) م ، ن: ١٠٢/١. وينظر : إعجاز القرآن ،أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣ هـ)، مطبوع بهامش : الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي الشافعي (ت ٩١١ هـ) ، القاهرة ، ١٣٧٠ هـ . ١٩٥١م . : ١٠/١.

الذين نزل القرآن بلغتهم ، وقد كانوا في وقت نزوله في أوج البلاغة والفصاحة ، وفي ذلك يقول ابن عاشور : (ودليل ذلك ـ الإعجاز ـ متواتر من نص القرآن في عدة آيات تتحدى العرب بأن يأتوا بسورة مثله ، وبعشر سور مثله مما هو معلوم) [١].

والدليل الثاني على إعجاز القرآن هو أن القرآن نفسه ذكر ذلك ، وقد ذكر ابن عاشور هذا الدليل بعد ذكره الدليل الأول فقال : (ناهيك أن القرآن نادى بأنه معجزة لهم نحو قوله تعالى :﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الآية ﴾ البقرة: ٢٣ - ٢٤ ، فإنه سهّل وسجّل ، سهل عليهم أن يأتوا بمثل سورة من سوره ، وسجل عليهم أنهم لا يفعلون ذلك أبدا فكان كما سجل) [٢].

واستشهد ابن عاشور أيضا بقوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يونس: ٣٨ ،وبقوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾ **هود: ١٣ - ١٤** ثم قال : (فعجز جميع المتحدين عن الإتيان بمثل القرآن أمر متواتر بتواتر هذه الآيات بينهم ، وسكوتهم عن المعارضة مع توفر دواعيها عليها) [٣] .

---

(١) التحرير والتنوير : ١/ ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) م ، ن: ١/١٠٣.

(٣) م ، ن: ١/١٠٣.

تعليل وجوه الإعجاز قبل ابن عاشور :

بيّن ابن عاشور أهمية الإعجاز وما ناله من اهتمام العلماء وعنايتهم ، وأن من سبقوه ألفوا كتبا تناولوا فيها جوانب من إعجاز القرآن ككتب البلاغة والتفسير ، وكانت لهم آراء متنوعة في تعليل وجوه الإعجاز ، ولم يكن موقفه منها موقف المستعرض الناقل ، وإنما موقف الناقد منطلقا من ثقافته الواسعة وفكره الثاقب ،ومبينا مذهبه الذي يذهب إليه .

إن مؤلفات علم البلاغة اشتملت على نماذج من إعجاز القرآن إلا أن تلك المؤلفات لم تكن خاصة بإعجاز القرآن ، وإنما لبيان خصائص كلام العرب عامة ليكون ذلك معيارا للنقد ، والجديد الذي جاء به ابن عاشور في مقدمته العاشرة في هذا المجال هو بيان غرضين ، الأول : إدراك كيف كان القرآن معجزا ، وتبصر نواحي إعجازه ، والثاني : إدراك بلاغة القرآن ولطائف أدبه ؛ إذ بين أن من سبقوه كانوا يخلطون بين هذين الغرضين ، وربما أهملوا الغرض الثاني ، فأظهر موقع الإعجاز من كتب البلاغة قبله، وما الذي جاء هو به مما أغفله السابقون. [١]

والتفاسير أيضا عني قسم منها بالإعجاز ، وابن عاشور في هذا المجال يجعل الكشاف للزمخشري من التفاسير المكثرة من العناية بإعجاز القرآن الكريم وبيان دقائق من وجوه نظمه وبلاغته ، وهو إذ يشيد بالكشاف يبدي استغرابه وتعجبه من عدم اهتمام التفاسير بذلك إلا القليل فيقول : (فمن أعجب ما نراه خلوّ معظم التفاسير عن الاهتمام بالوصول إلى هذا الغرض الأسمى إلا عيون التفاسير) [٢] .

وقد اختلف العلماء قبل ابن عاشور في تعليل وجوه إعجاز القرآن على أقوال عدة ، وقد عرض ابن عاشور طرفا منها مبينا موقفه منها ، وعارضا رأيه هو في ذلك ، ومن هذه الأقوال :

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير : ١/١٠١.

(٢) م ، ن : ١/ ١٠٢.

الصرفة:

الصرفة معناها أن العرب كانوا قادرين على الإتيان بمثل القرآن ، ولكنهم لم يأتوا بذلك لأن الله صرفهم عنه ، وأول من قال بها أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظّام المعتزلي (ت٢٣١هـ) ، قال الزركشي(ت٧٩٤هـ) عن القول بالصرفة : (وهو قول النظّام : إن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم ، وكان مقدورا لهم ، ولكن عاقهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات) [١] .

وقد رد العلماء القول بالصرفة ، ومنهم أبو بكر الباقلاني، ومما قاله : (ومما يبطل ما ذكروه من القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا ، وإنما يكون المنع معجزا ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه)[٢] ، ومنهم الزركشي الذي وصف القول بالصرفة بالفساد، وأن لازمه فساد آخر هو زوال الإعجاز بزوال زمن التحدي ، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة ، فقال : (وهو ـ القول بالصرفة ـ قول فاسد بدليل قوله تعالى :﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ الإسراء: ٨٨ ؛ فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سُلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم ؛ لمنزلته منزلة اجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى بكبير يحتفل بذكره ،هذا مع أن الإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن ، فكيف يكون معجزا غيره وليس فيه صفة إعجاز ، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم قدرتهم عن الإتيان بمثله ، وأيضا يلزم من القول بالصرفة فساد آخر ، وهو زوال الإعجاز بزوال زمن التحدي ، وخلو القرآن من الإعجاز ، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة ، فإنهم أجمعوا على بقاء

(١) البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي (ت ٧٩٤هـ) ، خرج حديثه وقدم له وعلق عليه : مصطفى عبدالقادر عطا ، ط ١ ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م : ١٠٤/٢ ، ١٠٥.

(٢) إعجاز القرآن ، الباقلاني : ٤٣/١.

معجزة الرسول العظمى ، ولا معجزة له باقية سوى القرآن ، وخلوه من الإعجاز يبطل كونه معجزة) [١] .

لقد ذكر ابن عاشور القول بالصرفة في المقدمة العاشرة ، وبين أنه مذهب قلّةٍ من العلماء فقال:(فذهبت طائفة قليلة إلى تعليله بأن الله صرفهم عن معارضة القرآن فسلبهم المقدرة ، أو سلبهم الداعي لتقوم الحجة عليهم بمرأى ومسمع من جميع العرب) [٢]، ثم بين أن هذا القول يعرف بالصرفة معتمدا في ذلك على كتاب (المواقف) لعضد الدين الإيجي (٧٥٦هـ) ، وكتاب (المقاصد) لسعد الدين التفتا زاني (ت ٧٩٣هـ) ، فقال: (ويعرف هذا القول بالصرفة كما في المواقف للعضد ، والمقاصد للتفتا زاني) [٣].

ولم يغفل ابن عاشور ضبط لفظة الصرفة ، وأصلها ، وصيغتها ، فقال:(ولعلها بفتح الصاد وسكون الراء ، وهي مرّة من الصرف ، وصيغ بصيغة المرة للإشارة إلى أنها صرف خاص ، فصارت كالعلم بالغلبة)[٤].

النظم :

ذهب جمهور العلماء إلى أن إعجاز القرآن يتجلى في نظمه، ومن أقدم من قال بذلك الجاحظ (ت٢٥٥هـ) في كتابه (نظم القرآن) المفقود ولكن العلماء ينقلون عنه في كتبهم ، وقال بذلك أيضا علي بن عيسى الرماني (٣٨٦هـ) في رسالته : (النكت في إعجاز القرآن) ، والقاضي عبدالجبار الهمذاني (ت٤١٥هـ) في كتابه (إعجاز القرآن) الذي هو الجزء السادس عشر من موسوعته المعروفة بـ (المغني) ، وتلاهم عبد القاهر الجرجاني في كتابيه المشهورين

(١) البرهان : ١٠٥/٢.

(٢) التحرير والتنوير : ١٠٣/١.

(٣) م ، ن : ١٠٣/١ . وينظر : شرح المواقف لعضد الدين الإيجي (ت ٧٥٦ هـ)،السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني(ت٨١٦هـ)، ومعه حاشيتا السيالكوتي والحلبي على شرح المواقف ، ضبطه وصححه محمود عمر الدمياطي ، ط ١ ، بيروت . لبنان ، ١٤١٩ هـ . ١٩٩٨ م: ٢٦٩/٨ ، شرح المقاصد ، مسعود بن عمر بن عبدالله الشهير بسعد الدين التفتازاني (ت٧٩٣ هـ) ، قدم له ووضع حواشيه وعلق عليه : إبراهيم شمس الدين ، ط ١ ، بيروت . لبنان ، ١٤٢٢ هـ . ٢٠٠١ م: ٣/ ٢٩١، ٢٩٢.

(٤) التحرير والتنوير : ١٠٣/١.

(أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز) في نظريته المعروفة بـ (نظرية النظم) المبنية على توخي معاني النحو ، ومعنى ذلك عند الجرجاني أن الإعجاز لا يتعلق بفنون البلاغة فحسب ولا بفصاحة الألفاظ وحدها ، وإنما يتعلق مع ذلك بطبيعة تركيب التعبير القرآني بحسب قواعد النحو [١].

وإذا رجعنا إلى المقدمة العاشرة وجدنا أن ابن عاشور اعتمد هذا القول ، وسار عليه في هذه المقدمة ، ونسبه إلى جمهرة أهل العلم والتحقيق ، فقال : (وأما الذي عليه جمهرة أهل العلم والتحقيق ، واقتصر عليه أئمة الأشعرية وإمام الحرمين ، وعليه الجاحظ وأهل العربية كما في المواقف ، فالتعليل لعجز المتحدين به بأنه بلوغ القرآن في درجات البلاغة والفصاحة مبلغا تعجز قدرة بلغاء العرب عن الإتيان بمثله ، وهو الذي نعتمده ونسير عليه في هذه المقدمة العاشرة) [٢] .

واستدل ابن عاشور على كون إعجاز القرآن في بلاغته الراجعة إلى مجموع النظم ، ببقاء الآيات التي نسخ حكمها متلوة ومكتوبة في المصاحف لإعجازها ، فقال : (وقد بدا لي دليل قوي على هذا ، وهو بقاء الآيات التي نسخ حكمها وبقيت متلوة من القرآن ، ومكتوبة في المصاحف ، فإنها لما نسخ حكمها لم يبق وجه لبقاء تلاوتها وكتبها في المصاحف إلا ما في مقدار مجموعها من البلاغة بحيث يلتئم منها مقدار ثلاث آيات متحدى بالإتيان بمثلها ، مثال ذلك آية الوصية في العقود) [٣] ، ويعني بالعقود سورة المائدة ، وبآية الوصية قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا

(١) ينظر: محاضرات في علوم القرآن والتفسير، د. كاصد ياسر الزيدي ، محاضرات ألقيت على طلبة كلية الآداب، جامعة الموصل ، قسم اللغة العربية، مطبوعة بالآلة الكاتبة ، ١٤٠٨هـ . ١٩٨٨م: ٣.

(٢) التحرير والتنوير: ١٠٣/١، ١٠٤.

(٣) م ، ن : ١٠٤/١.

﴿ لَّمِنَ ٱلْأَٰثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ المائدة: ١٠٦ ، فقد كانت الوصية واجبة وقد نسخت بالفرائض كما ذكر ابن عاشور نفسه في تفسير قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ البقرة: ١٨٠ ، فقال:(وبالفرائض نسخ وجوب الوصية الذي اقتضته هذه الآية)[١]،يريد بذلك أن الآية نسخ حكمها وبقيت تلاوتها . ويبين ابن عاشور أن التحدي قد يقع في أقصر سورة لما فيها من النظم المعجز ، فقال : (وإنما وقع التحدي بسورة ، أي وإن كانت قصيرة دون أن يتحداهم بعدد من الآيات ؛ لأن من أفانين البلاغة ما مرجعه إلى مجموع نظم الكلام وصوغه بسبب الغرض الذي سيق فيه من فواتح الكلام وخواتمه ، وانتقال الأغراض ، والرجوع إلى الغرض وفنون الفصل والإيجاز والإطناب والاستطراد والاعتراض) [٢] ، ثم أشار إلى أن هذا هو ما ذكره الطيبي (ت٧٤٣هـ) فقال : (وقد جعل شرف الدين الطيبي هذا هو الوجه ؛ لإيقاع التحدي دون أن يجعل بعدد من الآيات) [٣] .

وسنرى في ما سيأتي مكانة النظم عند ابن عاشور ، فإن كل ما سنذكره من وجوه إعجاز القرآن عنده فمداره في الغالب على نظم القرآن .

وجوه الإعجاز عند ابن عاشور:

يرى ابن عاشور أن تفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره المتأمل؛ لذا جمعها في أربع جهات فقال : (وإذ قد كان تفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره المتأمل كان علينا أن نضبط معاقدها التي هي ملاكها ، فنرى ملاك وجوه الإعجاز راجعا إلى ثلاث جهات) [٤]، فذكر ثلاث جهات ثم أضاف إليها ما يعد جهة رابعة ، فصارت الجهات عنده أربعا ، هي :

(١) التحرير والتنوير: ١٤٩/٢.
(٢) م ، ن : ١٠٤/١.
(٣) م ، ن : ١٠٤/١، ولم أعثر على قول الطيبي.
(٤) التحرير والتنوير : ١٠٤/١.

أولا :بلوغ القرآن الغاية القصوى في البلاغة والفصاحة:

إن الجهة الأولى من الجهات التي يرجع إليها ملاك وجوه الإعجاز عند ابن عاشور هي (بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ ، من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة ، بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم) [(١)]، وذكر ابن عاشور أن هذا هو ما اصطلح على تسميته (حد الإعجاز)، وأن أئمة البلاغة وظفوا ما دُوّن له علما المعاني والبيان للموازنة بين ما ورد في القرآن من ضروب البلاغة وبين أبلغ ما حفظ عن العرب من ذلك مما عد في أقصى درجاتها ، وذكر أن من العلماء الذين تصدوا لذلك أبا بكر الباقلاني ، وأبا هلال العسكري (ت ٣٩٥ هـ) ، وعبد القاهر الجرجاني، والسكاكي (ت٦٢٦هـ) ، وابن الأثير (ت٦٣٧ هـ)، ثم بين أن ما ذكره في المقدمة العاشرة إنما هو وصف إجمالي ، ولذلك أحال القارئ إلى كتب يحصل فيها قواعدها وكلياتها وذكر منها (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة) لعبد القاهر الجرجاني ،و(المفتاح) للسكاكي ، وأحال إلى كتب أخرى يحصل فيها تفاصيلها الواصفة لإعجاز آي القرآن ، منها تفسير (الكشاف) للزمخشري وما سيذكره هو في تفسيره (التحرير والتنوير) ، وذكر أنه سيورد في هذه المقدمة أصولا تتعلق بهذه الجهة مما لم يذكره السابقون أو أجملوا فيه فقال : (غير أني ذاكر هنا أصولا لنواحي إعجازه من هذه الجهة ، وبخاصة ما لم يذكره الأئمة وأجملوا في ذكره ، وحسبنا هنا الدليل الإجمالي ، وهو أن الله تحدى بلغاءهم أن يأتوا بسورة من مثله فلم يتعرض واحد إلى معارضته اعترافا بالحق وربأ بأنفسهم عن التعرض بالنفس إلى الافتضاح مع أنهم أهل القدرة في أفانين الكلام نظما ونثرا ، وترغيبا وزجرا ، قد خصوا من بين الأمم بقوة الذهن ، وشدة الحافظة ، وفصاحة اللسان ، وتبيان المعاني ، فلا يستصعب عليهم سابق من المعاني ، ولا يجمع بهم عسير من المقامات)[(٢)].

(١) التحرير والتنوير: ١/١٠٤.

(٢) م ، ن: ١/١٠٦.

ثم نقل أقوال قسم من العلماء في ذلك ، منهم السكاكي ، فقال (قال السكاكي في المفتاح : واعلم أن شأن الإعجاز عجيب، يدرك ولايمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ،أو كالملاحة، ومدرك الإعجاز عندي هو الذوق ليس إلا ، وطريق اكتساب الذوق طول خدمة هذين العلمين ـ المعاني والبيان ـ،نعم للبلاغة وجوه متلثمة ربما تيسرت إماطة اللثام عنها لتجلى عليك ، أما نفس وجه الإعجاز فلا) [١].

ونقل نصوصا تتعلق بشرح نص السكاكي هذا وبيان المراد منه ، ومن تلك النصوص قول التفتازاني : (وليس مدرك الإعجاز عند المصنف سوى الذوق ، وهو قوة إدراكية لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ووجوه محاسنه الخفية ، فإن كان حاصلا بالفطرة فذاك ، وإن أريد اكتسابه فلا طريق له سوى الاعتناء بعلمي المعاني والبيان وطول ممارستهما والاشتغال بهما ، وإن جمع بين الذوق الفطري وطول خدمة العلمين فلا غاية وراءه ، فوجه الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة) [٢] ، ومنها نص السيد الشريف الجرجاني فقال: (وقال السيد : أراد المصنف أن الإعجاز نفسه وإن لم يمكن وصفه وكشفه بحيث يدرك به ، لكن الأمور المؤدية إلى كون الكلام معجزا ، أعني وجوه البلاغة ، قد تحتجب فربما تيسر كشفها ليقوى بذلك ذوق البليغ على مشاهدة الإعجاز) [٣] ، وأوضح ابن عاشور ما قصده السيد الشريف في كلامه هذا فقال : (يريد السيد بهذا الكلام إبطال التدافع بين قول صاحب المفتاح : يدرك ولا يمكن وصفه ، إذ نفى الإمكان، وبين قوله : نعم للبلاغة وجوه ملتثمة ربما تيسرت إماطة اللثام عنها ، فأثبت تيسر وصف وجه الإعجاز ، بأن الإعجاز نفسه لايمكن كشف القناع عنه ، أما وجوه البلاغة فيمكن كشف القناع عنها) [٤].

ويرى ابن عاشور أنه لا شك في أن خصوصيات الكلام البليغ ودقائقه مرادة لله تعالى في كون القرآن معجزا ، وأنها ملحوظة للمتحدين به ، وأن إشارات كثيرة في القرآن تلفت الأذهان

(١) التحرير والتنوير: ١٠٧/١ . وينظر : مفتاح العلوم ، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي (ت٦٢٦هـ) ، ط ١ ، مصر ،١٣٥٦ هـ . ١٩٣٧م: ١٩٦ .

(٢) التحرير والتنوير : ١٠٧/١ ، ولم أعثر على نص التفتازاني.

(٣) م ، ن: ١٠٨/١.

(٤) م ، ن: ١٠٨/١ .

لذلك ، ويضرب على ذلك مثالا ما في نظم سورة الفاتحة مما أشار إليه الحديث القدسي عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلَّم) : (قال الله تعالى : قسمت الصلاة ـ أي سورة الفاتحة ـ بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ما سأل ، فإذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين ، قال الله تعالى : حمدني عبدي . وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال الله تعالى : أثنى علي عبدي . وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : مجدني عبدي ـ وقال مرة: فوض إلي عبدي ـ . فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل . فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل) [1] ، فقد أورد ابن عاشور هذا الحديث ثم بين أن فيه تنبيها على ما في سورة الفاتحة من حسن التقسيم الذي هو من المحسنات البديعية فقال : (ففي هذا الحديث تنبيه على ما في نظم فاتحة الكتاب من خصوصية التقسيم ؛ إذ قسم الفاتحة ثلاثة أقسام ، وحسن التقسيم من المحسنات البديعية ، مع ما تضمنه ذلك التقسيم من محسن التخلص في قوله : فإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال:هذا بيني وبين عبدي؛إذ كان مزيجا من القسمين الذي قبله والذي بعده) [2] .

وينبه ابن عاشور على ما في القرآن من مراعاة التجنيس ، وهو أيضا من المحسنات البديعية ، ويضرب له مثالا قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ ﴾ الأنعام: ٢٦ فيقول : (وفي القرآن مراعاة التجنيس في غير ما آية ، والتجنيس من المحسنات ، ومنه قوله تعالى ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُۖ ﴾ ، ويذكر أيضا أن في القرآن التنبيه على محسن المطابقة ، ويضرب على ذلك مثالا قوله تعالى :﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا

(١) رواه مسلم ، ينظر : صحيح مسلم بشرح الإمام محيي الدين النووي (ت٦٧٦هـ) ، المسمى المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، حقق أصوله وخرج أحاديثه ، خليل مأمون شيحا ، ط ١٥ ، دار المعرفة ، بيروت . لبنان ، ١٤٢٩هـ . ٢٠٠٨م: ٣٢٤/٤، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة.

(٢) التحرير والتنوير : ١٠٨/١.

يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ العنكبوت: ٤٣ ، وقوله تعالى : وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾ ﴾ النور: ٣٥

بعد ذلك حاول ابن عاشور تفصيل ما يعلمه من وجوه الإعجاز من هذه الجهة فقال:(ولذا فنحن نحاول تفصيل شيء مما أحاط به علمنا من وجوه الإعجاز) [١]، فذكر ما يأتي :

١ـ الالتفات :

ذكر ابن عاشور أن الالتفات من أفانين الكلام ، وعرفه بأنه (نقل الكلام من أحد طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها) [٢]، وبين أنه إذا جاء مجردا فهو معدود من الفصاحة ، وسماه ابن جني شجاعة العربية ؛ لأن ذلك التغيير الذي يحدثه الالتفات يجدد نشاط السامع ، فإذا انضم إليه اعتبار آخر لطيف يناسب الالتفات ، صار من أفانين البلاغة ، وكان معدودا عند بلغاء العرب من النفائس [٣] .

ولم يورد ابن عاشور أمثلة للالتفات في المقدمة العاشرة، وإنما اكتفى بالإشارة إلى كثرة وروده في القرآن الكريم بقوله : (وقد جاء منه في القرآن ما لا يحصى كثرة ، مع دقة المناسبة في الانتقال) [٤] ، وذكره في تفسيره الآيات التي اشتملت على هذا الفن البديع ، وأول تلك الآيات في ترتيب المصحف قوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ الفاتحة: ٥ ،قال الزمخشري : (فإن قلت : لم عدل عن لفظة الغيبة إلى لفظ الخطاب ؟ قلت : هذا يسمى الالتفات في علم البيان) [٥]، وقال ابن عاشور : (والانتقال من أسلوب الحديث بطريق الغائب المبتدأ من قوله :﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى قوله :﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ إلى أسلوب طريق الخطاب

(١) التحرير والتنوير: ١٠٩/١ .
(٢) م ، ن : ١٠٩/١.
(٣) ينظر : م ، ن: ١٠٩/١.
(٤) م ، ن : ١٠٩/١.
(٥) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٥٣٨هـ) ، ط ١ ، دار الفكر ، ١٣٩٧هـ . ١٩٧٧م : ٦٢/١.

ابتداء من قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إلى آخر السورة فن بديع من فنون نظم الكلام البليغ عند العرب ، وهو المسمى في علم الأدب العربي والبلاغة التفاتا) [١] ، ثم استطرد ذاكرا أن في ضابط أسلوب الالتفات رأيين لأئمة البلاغة ، أحدهما للسكاكي الذي جعل مسمى الالتفات (أن يعبر عن ذات بطريق من طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة عادلا عن أحدهما الذي هو الحقيق بالتعبير في ذلك الكلام إلى طريق آخر منها) [٢]، والثاني لمن عدا السكاكي من أئمة البلاغة الذين جعلوا مسمى الالتفات (أن المتكلم بعد أن يعبر عن ذات بأحد طرق ثلاثة من تكلم أو غيبة أو خطاب ينتقل في كلامه ذلك فيعبر عن تلك الذات بطريق آخر من تلك الثلاثة) [٣]وبين ثمرة هذا الخلاف بقوله : (ويظهر أثر الخلاف بين الجمهور والسكاكي في المحسن الذي يسمى بالتجريد في علم البديع) [٤] ، والمراد بالتجريد عند علماء البلاغة أن يُنتزَع من أمر ذي صفة أمرٌ آخر مثله في تلك الصفة مبالغة في كمالها حتى أنه قد صار منها بحيث يمكن أن ينتزع منه موصوف آخر بها [٥] ، وبهذا يشير ابن عاشور إلى أن التجريد على مذهب السكاكي من الالتفات ، وعلى مذهب من عداه ليس منه ، ثم رجع إلى بيان بلاغة الالتفات المعجزة في سورة الفاتحة فقال : (وما هنا التفات بديع ، فإن الحامد لما حمد الله تعالى ووصفه بعظيم الصفات بلغت به الفكرة منتهاها فتخيل نفسه في حضرة الربوبية فخاطب ربه بالإقبال) [٦] ، ثم مثل بأبيات من كلام العرب الذي يظهر أمامها الالتفات المعجز في القرآن الكريم [٧] .

---

(١) التحرير والتنوير : ١٧٨/١.

(٢) م ، ن : ١٧٨/١.

(٣) م ، ن : ١٧٨/١.

(٤) م ، ن : ١٧٨/١.

(٥) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، شرح وتعليق وتنقيح د. محمد عبدالمنعم خفاجي ، ط٥ ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، بيروت . لبنان ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م : ٥١٢ ، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد الهاشمي ، ط ١٢ ، بيروت . لبنان ، د . ت: ٣٧٤.،

(٦) التحرير والتنوير : ١٧٩/١.

(٧) ينظر : م ، ن : ١٧٩/١.

٢ . التشبيه والاستعارة :

التشبيه هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى وهو من علم البيان يراد به (ما لم يكن على وجه الاستعارة التحقيقية ولا الاستعارة المكنية ولا التجريد) [١] ، فهو(عقد مماثلة بين أمرين أو أكثر قصد اشتراكهما في صفة أو أكثر بأداة لغرض يقصده المتكلم) [٢] ، فإذا حذف أحد طرفي التشبيه صار استعارة (للمبالغة في التشبيه) [٣]، فالاستعارة (ليست إلا تشبيها مختصرا ، ولكنها أبلغ منه) [٤] .

بين ابن عاشور مكانة هذين الفنين عند العرب فقال : (وكان للتشبيه والاستعارة عند القوم المكان القصي والقدر العلي في باب البلاغة ، وبه فاق امرؤ القيس ونبهت سمعته) [٥] ، وذكر أنه جاء في القرآن الكريم في التشبيه والاستعارة ما أعجز العرب ، ومثل لذلك بقوله تعالى :﴿ وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا ﴾ مريم: ٤ ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ الإسراء: ٢٤ ، وقوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ يس: ٣٧ ، وقوله تعالى :﴿ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ﴾ هود: ٤٤ وقوله تعالى : ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ ﴾ البقرة: ١٣٨ ، ولم يفصل في ذلك لالتزامه بما ألزم به نفسه من الإجمال في هذه المقدمة ، وأشار إلى غير ذلك من وجوه البديع [٦].

ويرى ابن عاشور أن من محاسن التشبيه كمال الشبه ، وأن وسيلة ذلك (الاحتراس) ، ويذكر أن أحسنه ما وقع في القرآن ، ويمثل له بقوله تعالى : ﴿ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ محمد١٥ ، فهذا احتراس عن كراهة

(١) الإيضاح في علوم البلاغة ، القزويني : ٣٢٨.
(٢) جواهر البلاغة: ٢٤٧.
(٣) الإيضاح في علوم البلاغة ، القزويني :٤٠٧.
(٤) م ، ن : ٣٠٣.
(٥) التحرير والتنوير: ١٠٩/١.
(٦) ينظر : م ، ن: ١٠٩/١.

الطعام ، وقوله تعالى ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾محمد١٥ احتراس عن أن تتخلطه أقذاء من بقايا نحله [١] .

ويلفت النظر إلى الاستعارة التمثيلية في قوله تعالى: ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ ﴾ البقرة: ٢٦٦ ، فيقول : (ففيه إتمام جهات كمال تحسين التشبيه لإظهار أن الحسرة على تلفها أشد) [٢] ، وكذا في قوله تعالى :﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ ﴾ النور: ٣٥ ، فيقول : (فقد ذكر من الصفات والأحوال ما فيه مزيد وضوح المقصود من شدة الضياء ، وما فيه تحسين المشبه وتزيينه بتحسين شبهه) [٣] ، ليخلص من ذلك إلى أن كلام العرب لا يمكن أن يرقى إلى ذلك ببيتين من شعر كعب ، فيقول : (وأين من الآيتين قول كعب :

شَجَتْ بذي شَبَمٍ من ماءِ مَحْنِيَةٍ صافٍ بأبطحَ أضحى وهْو مشمولُ
تَنفي الرياحُ القذى عنه وأطْرَحُهُ من صَوْبِ سارِيةٍ بيضٌ يعاليلُ)[٤]

(١) ينظر : التحرير والتنوير: ١٠٩/١.
(٢) م ، ن: ١٠٩/١.
(٣) م ، ن: ١٠٩/١.
(٤) م ، ن : ١٠٩/١. وينظر : ديوان كعب بن زهير ، رواية أبي سعيد السكري ، شرح نخبة من العلماء ، دار الفكر للجميع ، بيروت ، ١٩٦٨م:١٢،١٣وفيه :(تنفي) بدل(تجلو) ، و(أفرطه) بدل (أطرحه).

٣ . مواقع الجمل :

يرى ابن عاشور أن نظم القرآن الكريم مبني على وفرة الإفادة وتعدد الدلالة ، وأن جمل القرآن لها دلالات متنوعة، منها الوضعية التركيبية ، ومنها البلاغية ، ومنها المطوية ، وهي دلالة ما يذكر على ما يقدر اعتمادا على القرينة ، وأن هذه الدلالات قد يشاركها فيها الكلام العربي وكلام البلغاء ، ولكنه ذكر دلالة لا تتأتى في كلام العرب ، وهي دلالة مواقع جمل القرآن الكريم بحسب ما قبلها وما بعدها ، كأن تكون الجملة في موقع علة لما قبلها أو استدراك أو جواب أو تعريض ، فقال : (وهذه الدلالة لا تتأتى في كلام العرب لقصر أغراضه في قصائدهم وخطبهم ، بخلاف القرآن فإنه لما كان من قبيل التذكير والتلاوة سمحت أغراضه بالإطالة ، وبتلك الإطالة تأتّى تعدد مواقع الجمل والأغراض)[1].

ومثل لذلك بقوله تعالى :﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ الجاثية: ٢٢ بعد قوله تعالى : ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الجاثية: ٢١ ، وذكر أن قوله تعالى :﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ إلى آخره مفيد بتراكيبه فوائد من التعلم والتذكير ، وهذا واقع موقع الدليل على أنه لا يستوي من عمل السيئات مع من عمل الصالحات في نعيم الآخرة ، ثم بين أن للتقديم والتأخير في وضع الجمل وأجزائها في القرآن دقائق عجيبة كثيرة لايحاط بها ، وضرب بعض الأمثلة منها قوله :(وإليك مثلا من ذلك يكون لك عونا على استجلاء أمثاله. قال تعالى:﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ﴿٢٢﴾ ﴾ النبأ: ٢١ - ٢٢– إلى قوله– ﴿ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ﴿٣٢﴾ ﴾ النبأ: ٣١ - ٣٢ – إلى قوله :﴿ وَكَأۡسٗا دِهَاقٗا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴾ النبأ: ٣٤ - ٣٥ – فكان للابتداء بذكر جهنم ما يفسر المفاز في قوله: ﴿ إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ أنه الجنة لأن الجنة مكان فوز. ثم كان قوله:﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴾ ما يحتمل لضمير

(١) التحرير والتنوير: ١/١١٠.

(فيها) من قوله: لا يسمعون فيها أن يعود إلى كأسا دهاقا وتكون (في) للظرفية المجازية أي الملابسة أو السببية أي لا يسمعون في ملابسة شرب الكأس ما يعتري شاربيها ي الدنيا من اللغو واللجاج، وأن يعود إلى مفازا بتأويله باسم مؤنث وهو الجنة وتكون (في) للظرفية الحقيقة أي لا يسمعون في الجنة كلاما لا فائدة فيه ولا كلاما مؤذيا. وهذه المعاني لا يتأتى جميعها إلا بجمل كثيرة لو لم يقدم ذكر جهنم ولم يعقب بكلمة مفازا. ولم يؤخر وكأسا دهاقا ولم يعقب بجملة: لا يسمعون فيها لغوا إلخ). [1] وهو بهذا يعطي مثالا لما سيجد القارئ تفصيله في مواضعه من تفسيره .

٤ . مراعاة المقام :

يرى ابن عاشور أن من إعجاز القرآن الكريم مراعاة المقام ، وذلك في (أن ينظم الكلام على خصوصيات بلاغية هي مراعاة من مقومات بلاغية وخاصة في إعجاز القرآن) [2]، وأن آية من القرآن قد تشتمل على خصوصيات ، ولكن المفسر لا يلتفت إلا إلى مواقع ألفاظ الآية ، فيتطلب لها مقتضيات ربما تكون متكلفة أو مغصوبة ، في حين أن مقتضياتها في الواقع منوطة بمراعاة المقام التي نزلت فيها الآية، ومثل لذلك بقوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ المجادلة: ١٩ ، ثم قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ المجادلة: ٢٢ ، وذكر أنه قد يخفى على المفسر مقتضى اجتلاب حرف التنبيه (ألا) في الآيتين ، فيذكر له مقتضيات عامة ، كأن يكون التنبيه للاهتمام بالخبر في حين أن مراعاة المقام يقتضي غير ذلك بأن (قدرنا أن الآيتين نزلتا بسمع من المنافقين والمؤمنين جميعا، علمنا أن اختلاف حرف التنبيه في الأولى لمراعاة إيقاظ فريقي المنافقين والمؤمنين جميعا، فالأولون لأنهم يتظاهرون بأنهم ليسوا من حزب الشيطان في نظر المؤمنين؛ إذ هم يتظاهرون بالإسلام، فكأن الله يقول : قد عرفنا دخائلكم ، وثاني الآخرين فكأنه يقول لهم : تيقظوا فإن الذين يتولون أعداءكم هم أيضا عدو لكم ، وعدو الله عدو لكم) [3] ، ثم

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ١/١١٠.

(٢) م ، ن: ١/١١١.

(٣) التحرير والتنوير: ١/١١١.

بين أن حرف التنبيه في الآية الثانية هو لتنبيه المنافقين إلى فضيلة المسلمين لعلهم يرغبون فيها فيرعوون عن النفاق ، وهو أيضا تنبيه للمسلمين على أن حولهم فريقا ليسوا من حزب الله ، فهم ليسوا بمفلحين ليعرفوا أحوالهم ويحذروهم [١] . ويرجع ابن عاشور هذا الصنف إلى النكت البلاغية ، فقد علم العرب أنهم عاجزون عن الإتيان بمثل نكت القرآن البلاغية منفردين و مجتمعين ، ولذلك سجل عليهم عجزهم ، ويذكر أن هذه الناحية هي أقوى نواحي إعجاز القرآن ، وهي التي يتحقق بها إعجاز أقصر سورة منه [٢] .

٥ . فصاحة اللفظ وانسجام النظم :

من نواحي إعجاز القرآن في هذه الجهة عند ابن عاشور ما سماه بـ (فصاحة اللفظ وانسجام النظم) ، ويكون ذلك عنده بسلامة الكلام في أجزائه ، ونقل بتصرف قول الرازي(ت٦٠٦هـ) في تفسيره مفاتيح الغيب : (إن المحاسن اللفظية غير مهجورة في الكلام الحكمي ، والكلام له جسم وهو اللفظ ، وله روح وهو المعنى ، وكما أن الإنسان الذي نور روحه بالمعرفة ينبغي أن ينور جسمه بالنظافة ، كذلك الكلام ، ورب كلمة حكمة لا تؤثر في النفوس لركاكة لفظها) [٣].

وذكر ابن عاشور أن الألفاظ قد يعرض لها ما يخل بفصاحتها من تنافر حروف الكلمة أو تنافر حروف الكلمات ، وقد سلم القرآن الكريم من هذا كله ، ويدخل في هذا أيضا عنده صراحة كلمات القرآن باستعمال أقرب الكلمات دلالة على المعاني المقصودة وأشملها لمعان عديدة مقصودة ، وضرب لذلك مثلا كلمة (حرد) في قوله تعالى : ﴿ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ القلم: ٢٥ إذ جميع معاني الحرد الحقيقية صالح للإرادة في ذلك الغرض ، وتمثل أيضا بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ﴾ الفرقان: ٤٠، فضمن الفعل (أتوا) معنى

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ١/١١١.

(٢) ينظر : م ، ن : ١/ ١١١،١١٢.

(٣) التحرير والتنوير: ١/١١٢ . وينظر : التفسير الكبير ، الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ) ، ط ٣ ، بيروت . لبنان ، ١٤٢٠ هـ . ١٩٩٩م: ٢٨/١٧٠ .

(مروا) ، فعدي بحرف على ؛ لأن الإتيان تعدى إلى اسم القرية ، والمقصود الاعتبار بمآل أهلها ، وهذه كلها لا تخالف أساليب الكلام البليغ ، فالعجز عن الوفاء بها دليل إعجاز القرآن[١] .

ثانياً : ما أبدعه القرآن في أساليب الكلام البليغ :

الجهة الثانية من الجهات التي إليها يرجع ملاك وجوه الإعجاز عند ابن عاشور هي (ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في أساليب الكلام البليغ) [٢]، وهذه الجهة في نظره مغفولة من علم البلاغة ؛ فأدب العرب نوعان : شعر ونثر، وهم قد التزموا في أسلوبيهما طريقة واحدة تشابهت فنونها وإن تنافسوا في ابتكار المعاني، فلما جاء القرآن ابتكر للقول أساليب كثيرة متنوعة وقف العرب أمامها حيارى عاجزين ،(وقد اشتمل القرآن على أنواع أساليب الكلام العربي ، وابتكر أساليب لم يكونوا يعرفونها) [٣] .

ويرى ابن عاشور أن لذلك التنويع في أساليب القرآن حكمتين داخلتين في الإعجاز ، الحكمة الأولى: هي ظهور أنه من عند الله ، والثانية : أن يكون في ذلك زيادة التحدي بحيث لا يستطيع أحد أن يقول : إن هذا الأسلوب لم تسبق لي معالجته ، ولو جاء بأسلوب آخر لعارضته . [٤]

ثم ذكر أساليب القرآن التي خالف فيها أساليب العرب كما يأتي :

١. الجمع بين مقصدي الموعظة والتشريع :

يرى ابن عاشور أن من أعظم الأساليب التي خالف بها القرآن أساليب العرب أنه جاء في نظمه بأسلوب جامع بين مقصدي الموعظة والتشريع ، (فكان نظمه يمنح بظاهره السامعين ما

(١) ينظر : التحرير والتنوير : ١/١١٣.
(٢) م، ن: ١/١١٣.
(٣) التحرير والتنوير : ١/١١٤.
(٤) ينظر : التحرير والتنوير: ١/١١٥.

يحتاجون أن يعلموه ، وهو في هذا النوع يشبه خطبهم ، وكان في مطاوي معانيه ما يستخرج منه العالم الخبير أحكاما كثيرة في التشريع والآداب وغيرها) [١].

ويرى أن الله تعالى قال في الكلام على بعض القرآن ، وهو يعني المتشابه :﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ آل عمران: ٧، وبين أن هذا من حيث ما لمعانيه من العموم والإيماء إلى العلل والمقاصد وغيرها ، ويفهم من كلامه أن الراسخين في العلم يعلمون ذلك [٢] ، ولم يذكر مثالا لهذا الأسلوب مكتفيا بالقدح في ذهن القارئ لما يجده في تفسيره لآيات القرآن لأن هذه مقدمة لاتحتمل الإطالة والتفصيل.

٢. التفنن :

ومن أساليب القرآن ما سماه ابن عاشور بالتفنن ، وعرفه بأنه (بداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض والتنظير والتذييل والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنبا لثقل تكرير الكلم وكذلك الإكثار من أسلوب الإلتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية ، فهو في القرآن كثير ، ثم الرجوع إلى المقصود ، فيكون السامعون في نشاط متجدد بسماعه وإقبالهم عليه) [٣].

ومن أبدع أمثلة ذلك عنده قوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ البقرة: ٨ - ٢٠ ، فهو يرى أن في هذا التفنن والتنقل مناسبات بين المنتقل منه والمتنقل إليه هي في منتهى

(١) التحرير والتنوير : ١١٥/١، ١١٦.
(٢) ينظر: م ، ن: ١١٦/١.
(٣) التحرير والتنوير: ١١٦/١.

الرقة والبداعة بحيث لا يشعر به السامع إلا عند حصوله ، وذلك التفنن مما يعين على الاستماع ويدفع السآمة ، وذلك مناسب لاستكثار أزمان قراءته [١] . وذكر هنا ما نقله الزركشي عن أبي بكر ابن العربي (ت ٤٥٣هـ) أنه قال في كتابه (سراج المريدين) :(ارتباط آي القرآن بعضها مع بعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسعة المعاني منتظمة المباني علم عظيم) [٢] ، وما نقله عن عز الدين بن عبدالسلام (ت٦٦٠هـ)أنه قال : (المناسبة علم حسن ، ويشترط في حسن ارتياط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، والقرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض) [٣]، وما نقل عن الفخر الرازي أنه قال : (إن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، هو أيضا معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك) [٤] .

فابن عاشور يرى أن بلاغة الكلام لاتنحصر في أحوال تراكيبه اللفظية ، بل تتجاوز إلى الكيفيات التي تؤدى بها تلك التراكيب ، ويضرب لذلك مثالا قوله تعالى :﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ﴾ النازعات: ١٥ - ١٦ فيرى أن الوقف على كلمة (موسى) يحدث في نفس السامع ترقبا لما يبين حديث موسى ، فإذا جاء بعده (إذ ناداه ربه ..إلخ) حصل البيان مع ما يحصل عند الوقف على كلمة (موسى) من قرينة من قرائن الكلام ؛ لأنه على سجعة الألف ، مثل : طوبى ، طغى ، تزكى ..إلخ [٥]، وذكر أيضا في قوله تعالى :﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ البقرة: ٢ : (أنك إذا وقفت على كلمة « ريب » كان من قبيل إيجاز الحذف ، أي لاريب في أنه الكتاب ، فكانت جملة « فيه هدى

(١) التحرير والتنوير: ١١٦/١.

(٢) م ، ن : ١/ ١١٦. وينظر : البرهان: ٦٢/١ ويبدو أن كتاب ابن العربي مفقود لأني لم أعثر عليه .

(٣) التحرير والتنوير : ١١٦/١ . وينظر : البرهان : ٦٣/١ولم أعثر على نص ابن عبدالسلام ولم أعلم من أي كتاب نقله الزركشي.

(٤) التحرير والتنوير : ١/ ١١٧. وينظر : البرهان : ١/ ٦٣ ، التفسير الكبير : ١٠٦/٧.

(٥) التحرير والتنوير: ١١٧/١.

للمتقين » ابتداء كلام ، وكان مفاد حرف« في» استنزال طائر المعاندين ، أي : إن لم يكن كله هدى فإن فيه هدى ، وإن وصلت «فيه» كان من قبيل الإطناب ، وكان ما بعده مفيدا أن هذا الكتاب كله هدى) [١].

٣. العدول عن تكرير اللفظ والصيغة :

ذكر ابن عاشور أن من أساليب القرآن العدول عن تكرير اللفظ والصيغة ، في ما عدا المقامات التي تقتضي التكرير من تهويل ونحوه ، ومثل للعدول عن تكرير الصيغة بقوله تعالى : ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [٢] ، إذ عدل عن الصيغة (فجاء بلفظ قلوب جمعا مع أن المخاطب امرأتان ، فلم يقل :«قلباكما» تجنبا لتعدد صيغة المثنى) [٣]، وذكر أيضا أن في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا ﴾ الأنعام: ١٣٩ ، عدولا (فروعي معنى ما الموصولة مرة فأتى بضمير جماعة المؤنث وهو «خالصة» ، وروعي لفظ ما الموصولة فأتى بـ «محرم » مذكرا مفردا) [٤] .

ويرى ابن عاشور أن (المقام قد يقتضي شيئين متساويين ، أو أشياء متساوية ، فيكون البليغ مخيرا في أحدهما ، وله ذكرهما تفننا) [٥]، ويذكر أنه قد وقع في القرآن كثير من هذا ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا ﴾ البقرة: ٣٥ بواو العطف (وكلا) في سورة البقرة ، وبفاء التفريع (فكلا) في سورة الأعراف إذ قال تعالى :﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ الأعراف: ١٩ ، وكلاهما مطابق للمقام (فإنه أمر ثان ، وهو أمر مفرع على الإسكان ، فيجوز أن يحكى بكل من الاعتبارين)

(١) التحرير والتنوير : ١١٧/١.
(٢) التحريم : ٤ .
(٣) التحرير والتنوير : ١١٧/١،
(٤) م ، ن: ١١٧/١ .
(٥) م ، ن : ١١٨/١ .

[1]، ومنه أيضا قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ البقرة: ٥٨ وفي سورة الأعراف :﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا ﴾ الأعراف: ١٦١ (فعبر مرة بـ « ادخلوا » ، ومرة بـ « اسكنوا » ، وعبر مرة بواو العطف ، ومرة بفاء التفريع ، وهذا التخالف بين الشيئين يقصد لتلوين المعاني المعادة حتى لاتخلو إعادتها عن تجدد معنى وتغاير أسلوب ، فلا تكون إعادتها مجرد تذكير) [2] ، واستشهد ابن عاشور بتفسير الزمخشري لقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ الأنبياء: ٤ ، فقال : (قال في الكشاف : ليس بواجب أن يجاء بالآكد في كل موضع ، ولكن يجاء بالوكيد تارة ، وبالآكد تارة أخرى ، كما يجاء بالحسن في موضع ، وبالأحسن في غيره ليفتن الكلام افتنانا) [3].

٤ . اتساع أساليب الأدب في القرآن الكريم :

ذكر ابن عاشور أن أدب العرب السائر فيهم لم يكن غير الشعر ، وله أسلوب خاص من انتقاء الألفاظ وإبداع المعاني ، ولهم من غير الشعر الخطب والأمثال والمحاورات ، فجاء القرآن بأسلوب في الأدب غض جديد صالح لكل العقول (متفنن إلى أفانين أغراض الحياة كلها ، معط لكل فن ما يليق به من المعاني والألفاظ واللهجة ، فتضمن المحاورة والخطابة والجدل والأمثال ، أي الكلم الجوامع ، والقصص والتوصيف والرواية) [4] ، وابتكر القرآن أسلوب الفواصل العجيبة المتماثلة في الأسماع ، وإن المحسنات في البديع جاءت في القرآن أكثر مما جاءت في الشعر وخاصة الجناس والطباق ، وصار . لمجيئه نثرا . أدبا جديدا غضا ومتناولا لكل الطبقات ، فهو يرى أن للقرآن مبتكرات تميز بها نظمه عن بقية كلام العرب ، منها أنه جاء على أسلوب يخالف الشعر، ويخالف أسلوب الخطابة بعض المخالفة ، وجاء (بطريقة كتاب

(١) التحرير والتنوير : ١١٨/١ .
(٢) م، ن: ١١٨/١ .
(٣) م ، ن :١١٨/١ . وينظر : الكشاف : ٢/ ٥٦٢.
(٤) التحرير والتنوير : ١١٩/١ .

يقصد حفظه وتلاوته ، وذلك من وجوه إعجازه ؛ إذ كان نظمه على طريقة مبتكرة ليس فيها اتباع لطرائقها القديمة في الكلام) [١] ، ومنها أنه جاء على أسلوب التقسيم والتسوير ، والأسلوب القصصي ، ومنها أنه يتصرف في حكاية أقوال المحكي عنهم على ما يقتضيه أسلوب إعجازه ، ومنها أسلوب التمثيل ، وهو لم يلتزم أسلوبا واحدا ، فقد اختلفت سوره وتفننت ، فتكاد تكون لكل سورة لهجة خاصة [٢].

٥ . الإيجاز :

يرى ابن عاشور أن من أبدع أساليب العرب الإيجاز ، وأن القرآن جاء بأبدع هذا الأسلوب ، فيقول: (وقد جاء القرآن بأبدعه ؛ إذ كان . مع ما فيه من الإيجاز المبين في علم المعاني . فيه إيجاز عظيم آخر ، وهو صلوحية معظم آياته لأن تؤخذ منها معان متعددة كلها تصلح لها العبارة باحتمالات لا ينافيها اللفظ ، فبعض تلك الاحتمالات مما يمكن اجتماعه ، وبعضها وإن كان فرض واحد منه يمنع من فرض آخر، فتحريك الأذهان إليه وإخطاره بها يكفي في حصول المقصد من التذكير به للامتثال أو الانتهاء) [٣] ، ويرى أيضا أنه لولا إيجاز القرآن لكان أداء ما يتضمنه من المعاني في أضعاف مقدار القرآن ، ويقول : (وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدا يدق عن تفطن العالم ، ويزيد عن تبصره ، ولا ينبئك مثل خبير) [٤].

إن الحذف . كما يقول ابن عاشور . تجده في كثير من تراكيب القرآن ، ولكن لا يخلو الحذف من دليل عليه من لفظ أو سياق ، زيادة على جمع المعاني الكثيرة في الكلام القليل ، وينقل عن الزمخشري قوله :(الحذف والاختصار هو نهج التنزيل) [٥] ، ويذكر أن بعض بطارقة الروم قال لعمر بن الخطاب ﷺ لما سمع قوله تعالى :﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ

(١) التحرير والتنوير: ١/١٢٠ .
(٢) ينظر : م ، ن :١/١٢١ .
(٣) م ، ن : ١/١٢٢.
(٤) م ، ن: ١/١٢٢ .
(٥) م، ن : ١/١٢٢. وينظر: الكشاف: ٤/٦٥٥ .

﴿ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ النور: ٥٢ : (قد جمع الله في هذه الآية ما أنزل على عيسى من أحوال الدنيا والآخرة) [١].

ويستشهد على الحذف في القرآن بقوله تعالى :﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ القصص: ٧ ، فقال : (جمع بين أمرين ونهيين وبشارتين) [٢] ، وبقوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ البقرة: ١٧٩ مبينا أنه جاء (مقابلا أوجز كلام عرف عندهم ، وهو : القتل أنفى للقتل) [٣]، ويذكر أيضا قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى ﴾ هود: ٤٤ مشيرا إلى ما ذكره السكاكي فيقول : (ولقد بسط السكاكي في المفتاح آخر قسم البيان نموذجا مما اشتملت عليه هذه الآية من البلاغة والفصاحة) [٤] ، ويذكر أن الباقلاني تصدى في كتابه (إعجاز القرآن) إلى بيان ما في سورة النمل من الخصائص [٥] ، وعند بحثنا في إعجاز القرآن للباقلاني رأيناه يتكلم على الإيجاز والحذف ، ولم نر له كلاما على سورة النمل [٦] ، والله أعلم .

ثالثا : حقائق القرآن العقلية والعلمية :

إن الجهة الثالثة من جهات الإعجاز عند ابن عاشور هي ما أودعه القرآن من المعاني الحكمية والإشارات العلمية ، وذكر أن العرب لم يكن لهم علم سوى الشعر وما تضمنه من الأخبار مستشهدا بقول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : (كان الشعر علم القوم ولم يكن

---

(١) التحرير والتنوير : ١٢٢/١ .
(٢) م ، ن: ١٢٢/١ .
(٣) م ، ن: ١٢٢/١ .
(٤) م ، ن : ١٢٢/١ . وينظر : مفتاح العلوم ، السكاكي : ١٩٧ وما بعدها .
(٥) ينظر: التحرير والتنوير ١٢٢/١ .
(٦) ينظر: إعجاز القرآن ، الباقلاني : ١٦٠/٢ وما بعدها .

لهم علم أصح منه) [١] ، وقسم العلم إلى نوعين : النوع الأول : سماه بـ (العلم الاصطلاحي) ، وعرفه بأنه (ما تواضع الناس في عصر من الأعصار على أن صاحبه يعد في صف العلماء) [٢]، ووصفه بأنه (قد يتغير بتغير العصور ، ويختلف باختلاف الأمم والأقطار ، وهذا النوع لا تخلو عنه أمة) [٣]. والنوع الثاني : سماه بـ (العلم الحقيقي) ، وعرفه بأنه (معرفة ما بمعرفته كمال الإنسان ، وما به يبلغ ذروة المعارف وإدراك الحقائق النافعة عاجلا وآجلا) [٤] ، ويرى أن كلا (العلمين كمال إنساني ووسيلة لسيادة أصحابه على أهل زمانهم ، وبين العلمين عموم وخصوص من وجه) [٥] .

ويرى ابن عاشور أن هذه الجهة خلا عنها كلام فصحاء العرب ؛ (لأن أغراض شعرهم كانت لاتعدو وصف المشاهدات والمتخيلات والافتراضات المختلفة ، ولاتحوم حول تقرير الحقائق وفضائل الأخلاق التي هي القرآن ، ولم يقل إلا صدقا) [٦] ، ويرى أن نوعي العلم الذين ذكرهما قد اشتمل عليهما القرآن الكريم ، فأما (النوع الأول) : وهو الاصطلاحي (فتناوله قريب لا يحتاج إلى كد فكر، ولا يقتضي نظرا ؛ فإن مبلغ العلم عندهم . أي العرب . يومئذ علوم أهل الكتاب ، ومعرفة الشرائع والأحكام وقصص الأنبياء والأمم وأخبار العالم) [٧] ويرى أن القرآن أشار إلى هذا بقوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ الأنعام: ١٥٥ – ١٥٧ ، وبقوله تعالى :﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ

(١) التحرير والتنوير : ١/١٢٥ .
(٢) م ، ن: ١/١٢٦ .
(٣) م ، ن : ١/١٢٦ .
(٤) م ، ن : ١/١٢٦ .
(٥) م ، ن: ١/ ١٢٦ .
(٦) م، ن: ١/١٢٦ .
(٧) م ، ن : ١/١٢٦ .

مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ هود: ٤٩، ونحو هذا من محاجة أهل الكتاب [١]، ويعد ابن عاشور تعلق ذلك بالإعجاز من جهة أن أدب العرب لم يكن مشتملا على التاريخ إلا بإشارات نادرة ، فجاء القرآن بكثير من تفصيل ذلك ، كقوله تعالى :﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ الأحقاف: ٢١ ، وكقوله تعالى :﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾ فصلت: ١٣ ، ويقول : (ولهذا يقل في القرآن التعرض إلى تفاصيل أخبار العرب ؛ لأن ذلك أمر مقرر عندهم معلوم لديهم ، وإنما ذكر قليل منه على وجه الإجمال على معنى العبرة والموعظة بخبر عاد وثمود وقوم تبع) [٢]

وأما (النوع الثاني): وهو الحقيقي فقسمه ابن عاشور إلى قسمين : القسم الأول : يكفي لإدراك وجه إعجازه فهمه وسمعه ، والقسم الثاني : يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم ، فيظهر للناس بحسب مبالغ فهومهم وتطورات علومهم (وكلا القسمين دليل على أنه من عند الله ؛ لأنه جاء به أمي في موضع لم يعالج أهله دقائق العلوم ، والجائي به ثاو بينهم لم يفارقهم) [٣]، وذكر أن الإشارة إلى هذه الجهة من الإعجاز وردت في القرآن الكريم في سورة القصص بقوله تعالى:﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ القصص: ٤٩ ــ ٥٠ ، ثم إن القرآن (ما كان قصاراه مشاركة أهل العلوم في علومهم الحاضرة ، حتى ارتقى إلى ما لم يألفوه ، وتجاوز ما درسوه وألفوه)[٤]، وفتح الأعين إلى فضائل العلوم فشبه العلم بالنور وبالحياة ، فقال تعالى :﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا ﴾ يس: ٧٠، وقال تعالى : ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ البقرة: ٢٥٧ ، وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ

(١) ينظر : التحرير والتنوير: ١٢٦/١
(٢) م ، ن: ١٢٧/١ .
(٣) م ، ن : ١٢٧/١ .
(٤) م ، ن: ١٢٧/١ .

﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ العنكبوت: ٤٣ ، وهذا النوع من الإعجاز يرى ابن عاشور أنه هو الذي خالف به القرآن أساليب الشعر وأغراضه مخالفة واضحة ، ثم يذكر أن الشاطبي قال في الموافقات : (إن القرآن لا تحمل معانيه ولا يتأول إلا على ما هو متعارف عند العرب) [١] ، ويرد عليه معتذرا له فيقول : (ولعل هذا الكلام صدر منه في التفصي من مشكلات في مطاعن الملحدين اقتصادا في البحث وإبقاء على نفيس الوقت ، وإلا فكيف ينفي إعجاز القرآن لأهل كل العصور ، وكيف يقصر إدراك إعجازه بعد عصر العرب على الاستدلال بعجز أهل زمانه إذ عجزوا عن معارضته ، وإذ نحن نسلم لهم التفوق في البلاغة والفصاحة ، فهذا إعجاز إقناعي بعجز أهل عصر واحد ولا يفيد أهل كل عصر إدراك طائفة منهم لإعجاز القرآن) [٢] .

ويذكر ابن عاشور أنه قد بدت له حجة لتعلق هذه الجهة بالإعجاز ودوامه وعمومه ، وهي قول الرسول (صلى الله عليه وسلَّم) في الحديث الصحيح : (ما من الأنبياء نبي إلا أوتي . أو أعطي . من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة) [٣] ، وبين أن في هذا الحديث نكتتين غفل عنهما شارحوه ، النكتة الأولى : أن قوله (صلى الله عليه وسلَّم) : (ما مثله آمن عليه البشر) اقتضى (أن كل نبي جاء بمعجزة هي إعجاز في أمر خاص كان قومه أعجب به وأعجز عنه ، فيؤمنون على مثل تلك المعجزة) [٤] ، والنكتة الثانية : أن قوله(صلى الله عليه وسلَّم) : (وإنما

---

(١) التحرير والتنوير: ١٢٨/١ ، ويبدو أن كلام الشاطبي منقول بالمعنى لأني لم أجده بنصه وإنما بما يدل على معناه ومن ذلك قوله : (بمعنى أنه في ألفاظه ومعانيه وأساليبه عربي، بحيث إذا حقق هذا التحقيق سلك به في الاستنباط منه والاستدلال به مسلك كلام العرب في تقرير معانيها ومنازعها في أنواع مخاطباتها خاصة) ينظر : الموافقات في أصول الفقه ، الشاطبي (إبراهيم بن موسى) ، الناشر : دار المعرفة ـ بيروت ، تحقيق : عبدالله دراز: ٣٩/١.

(٢) م . ن : ١٢٨/١ .

(٣) رواه البخاري ، ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) ، ط ٣ ، دار السلام . الرياض ، دار الفيحاء . دمشق ، ١٤٢١هـ . ٢٠٠٠م: كتاب فضائل القرآن : الحديث ٤٩٨١.

(٤) التحرير والتنوير : ١٢٨/١ .

كان الذي أوتيت وحيا) اقتضى (أن ليست معجزته من قبيل الأفعال كما كانت معجزات الرسل أفعالا لا أقوالا ، كقلب العصا ، وانفجار الماء من الحجر، وإبراء الأكمه والأبرص ، بل كانت معجزته في القرآن من دلالة على عجز البشر عن الإتيان بمثله من جهتي اللفظ والمعاني ، وبذلك يمكن أن يؤمن به كل من يبتغي إدراك ذلك من البشر ويتدبره ، ويفصح عن ذلك تعقيبه بقوله : فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا ؛ إذ قد عطف بالفاء المؤذنة بالترتب ، فالمناسبة بين كونه أوتي وحيا وبين كونه يرجو أن يكون أكثرهم تابعا لا تنجلي إلا إذا كانت المعجزة صالحة لجميع الأزمان) [١] .

ويرى ابن عاشور أن هذه الجهة من الإعجاز ليست في كل آية ولا في كل سورة ، وإنما تثبت للقرآن بمجموعه ، ويبين أن القرآن من هذه الجهة معجز للعرب ، وللناس عامة، ولأهل الكتاب خاصة ، ويفصل ذلك فيذكر أن إعجازه للعرب ظاهر ؛ إذ لاقبل لهم بتلك العلوم كما قال الله تعالى :﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾ هود: ٤٩ ، وأن إعجازه لعامة الناس (أن تجيء تلك العلوم من رجل نشأ أميا في قوم أميين) [٢] ، وأما إعجازه لأهل الكتاب خاصة فهو أنه (كان ينبئهم بعلوم دينهم مع كونه أميا ، ولا قبل لهم بأن يدعوا أنهم علموه ؛ لأنه كان بمرأى من قومه في مكة بعيدا عن أهل الكتاب الذين كان مستقرهم بقرى النظير وقريظة وخيبر وتيماء وبلاد فلسطين ، ولأنه جاء بنسخ دين اليهودية والنصرانية ، والإنحاء على اليهود والنصارى في تحريفهم ، فلو كان قد تعلم منهم لأعلنوا ذلك وسجلوا عليه أنه عقهم حق التعليم) [٣] .

رابعاً : الإخبار بالمغيبات :

الجهة الرابعة من الجهات التي يرى ابن عاشور أن ملاك وجوه الإعجاز راجع إليها هي ما سماه بـ (الإخبار بالمغيبات) ، ويذكر أن هذه الجهة ليس لها مزيد تعلق بنظم القرآن ، وليس

(١) التحرير والتنوير: ١/ ١٢٨ ، ١٢٩ .
(٢) م ، ن: ١/١٢٩.
(٣) م ، ن : ١/ ١٢٩ .

كثيرا في القرآن ولكنه عده من وجوه الإعجاز اقتداء بمن سلفه من العلماء الذين تنولوا إعجاز القرآن ، وفي ذلك يقول : (وأما الجهة الرابعة وهي الإخبار بالمغيبات فقد اقتفينا أثر من سلفنا ممن عد ذلك من وجوه الإعجاز اعتدادا منا بأنه من دلائل كون القرآن منزلا من عند الله ، وإن كان ذلك ليس له مزيد تعلق بنظم القرآن ودلالة فصاحته وبلاغته على المعاني العليا ، ولا هو كثير في القرآن) [١].

ووعد ابن عاشور بأنه سينبه على جزئيات هذه الجهة في تضاعيف تفسيره (التحرير والتنوير) ، واكتفى في مقدمته العاشرة التي عليها مدار بحثنا هذا بذكر آيات اشتملت على هذا النوع من الإعجاز ، منها قوله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ﴾ الروم: ١ - ٤ ؛ إذ قال : (روى الترمذي في تفسيرها عن ابن عباس قال : كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم ؛ لأنهم وإياهم أهل أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم لأنهم أهل كتاب فذكره أبو بكر لرسول الله فنزل قوله تعالى :﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ ﴾ فخرج أبو بكر يصيح بها في نواحي مكة ، فقال له ناس من قريش : أفلا نراهنك على ذلك ؟ قال : بلى ، وذلك قبل تحريم الرهان ، فلما كانت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس ، وأسلم عند ذلك كثير من قريش) [٢] . وذكر منها أيضا قوله تعالى :﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ ﴾ النور: ٥٥ ، وقوله تعالى :﴿ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ النحل: ٨ ، وعلق عليها قائلا : (فما حدث بعد ذلك من المراكب منبأ به في هذه الآية) [٣] ، ومنها قوله تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١ ﴾ الفتح: ١ ،إذ قال عن هذه الآية : (نزلت

(١) التحرير والتنوير: ١/١٢٩ .
(٢) م ، ن: ١/١٢٩ ، ١٣٠ .
(٣) م ، ن : ١/١٣٠ .

قبل فتح مكة بعامين) [1] ، ومنها قوله تعالى :﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ ﴾ الفتح: ٢٧ .

وبعد أن ذكر ابن عاشور هذه النماذج من آيات القرآن الكريم على إعجازه الغيبي بين أن الله تعالى أعلن هذا الإعجاز بالتحدي به فقال : (وأعلن ذلك الإعجاز بالتحدي به في قوله تعالى :﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ ﴾ البقرة: ٢٣ – ٢٤ ، فسجل أنهم لا يفعلون ذلك أبدا وكذلك كان) [2] .

وابن عاشور بكلامه على هذه الجهة كأنه ينوه إلى أن كل ما ذكره من وجوه الإعجاز فمداره على نظم القرآن وفصاحته وبلاغته وهو الذي عليه جمهور أهل التحقيق كما ذكر، وإنما ذكر هذه الجهة الرابعة لكونها من دلائل الإعجاز ، ولأن من سبقوه ذكروها ، وإن لم تكن لها علاقة كبيرة بما تبناه وهو نظم القرآن الذي بنى عليه كلامه على الإعجاز في المقدمة العاشرة ، وطبقه تفصيلا في تفسيره .

خاتمة

وبعد هذه القراءة التحليلية لتعليل ابن عاشور لوجوه الإعجاز في مقدمة تفسيره العاشرة توصل البحث إلى نتائج نجملها في ما يأتي:

بين ابن عاشور أهمية الإعجاز وما ناله من اهتمام العلماء وعنايتهم ، وأن من سبقوه ألفوا كتبا تناولوا فيها جوانب من إعجاز القرآن ككتب البلاغة والتفسير ، وكانت لهم آراء متنوعة في تعليل وجوه الإعجاز ، ولم يكن موقف ابن عاشور منها موقف المستعرض الناقل ، وإنما وقف منها موقف الناقد منطلقا من ثقافته الواسعة وفكره الثاقب ،ومبينا مذهبه الذي يذهب إليه .

(١) التحرير والتنوير: ١/١٣٠ .
(٢) م. ن : ١/ ١٣٠ .

ـ إن مؤلفات علم البلاغة اشتملت على نماذج من إعجاز القرآن إلا أن تلك المؤلفات لم تكن خاصة بإعجاز القرآن ، وإنما لبيان خصائص كلام العرب عامة ليكون ذلك معيارا للنقد ، والجديد الذي جاء به ابن عاشور في مقدمته العاشرة في هذا المجال هو بيان غرضين ، الأول : أدراك كيف كان القرآن معجزا ، وتبصر نواحي إعجازه ، والثاني : إدراك بلاغة القرآن ولطائف أدبه ؛ إذ بين أن من سبقوه كانوا يخلطون بين هذين الغرضين ، وربما أهملوا الغرض الثاني ، فأظهر موقع الإعجاز من كتب البلاغة قبله، وما الذي جاء هو به مما أغفله السابقون.

. إن التفاسير أيضا عني قسم منها بالإعجاز ، وابن عاشور في هذا المجال يجعل الكشاف للزمخشري من التفاسير المكثرة من العناية بإعجاز القرآن الكريم وبيان دقائقَ من وجوه نظمه وبلاغته ، وهو إذ يشيد بالكشاف يبدي استغرابه وتعجبه من عدم اهتمام معظم التفاسير بذلك إلا القليل .

ـ يرى ابن عاشور أن العناية ببيان وجوه إعجاز القرآن نبعت من مختزن أصل كبير من أصول الإسلام وهو كون القرآن المعجزة الكبرى للنبي (صلى الله عليه وسلَّم) ، وكونه المعجزة الباقية التي تحدى بها معانديه صراحة ، ويبين دليلي إعجاز القرآن ، وهما أن الواقع يشهد بذلك ؛ إذ منذ نزول القرآن إلى يومنا هذا أثبت الواقع عجز الناس جميعا عن الإتيان بمثل القرآن ، ولا سيما العرب ، والدليل الثاني هو أن القرآن نفسه نادى بأنه معجزة ، وسجل على الناس أنهم لا يفعلون ذلك أبدا فكان كما سجل .

. ذكر ابن عاشور القول بالصرفة مبينا أنه مذهب طائفة قليلة من العلماء ، معتمدا في ذلك كتاب المواقف للإيجي ، وكتاب المقاصد للتفتازاني ، وبين ضبط لفظة الصرفة بأنها قد تكون بفتح الصاد وسكون الراء ، وأنها مرة من الصرف ، للإشارة إلى أنها صرف خاص فصارت كالعلم بالغلبة ، ولم يعتمد القول بالصرفة الذي رده العلماء قبله كالباقلاني والزركشي .

. اعتمد ما ذهب إليه جمهرة أهل العلم والتحقيق من أن إعجاز القرآن يتجلى في نظمه ، وبين أن التحدي قد يقع في أقصر سورة لما فيها من النظم المعجز .

. يرى ابن عاشور أن وجوه الإعجاز لايحصرها المتأمل ؛ ولذا ضبط معاقدها التي هي ملاكها وأرجعها إلى ثلاثة أوجه تتعلق بالنظم ، وأضاف إليها جهة رابعة ، فصارت الجهات عنده أربعا هي:(الجهة الأولى):بلوغ القرآن الغاية القصوى في البلاغة والفصاحة ، وأدرج تحت هذه الجهة تفصيلا مما أحاط به علمه من وجوه الإعجاز ، فذكر الالتفات ، والتشبيه والاستعارة ، ومواقع الجمل ، ومراعاة المقام ، وفصاحة اللفظ وانسجام النظم ، (والجهة الثانية) :ما أبدعه القرآن من أساليب الكلام البليغ ، وذكر تحتها أساليب القرآن التي خالف فيها أساليب العرب ، ومنها الجمع بين مقصدي الموعظة والتشريع ، والتفنن ، والعدول عن تكرير اللفظ والصيغة ، واتساع أساليب الأدب في القرآن الكريم ، والإيجاز، (والجهة الثالثة) : حقائق القرآن العلمية والعقلية ، (والجهة الرابعة) : الإخبار بالمغيبات .

. تبين لنا من خلال دراستنا لهذه المقدمة سعة علم ابن عاشور و غزارة ثقافته ، وثاقب بصيرته ، مما تجلى في نقده لآراء من سبقوه ، وعرضه الجديد لقضية الإعجاز بما لم يسبق إليه ، ولذا كان تفسيره مقصد الباحثين الذين كتبوا عنه أكثر من دراسة في جوانب متنوعة منه ، ويبقى في قوس الدراسة لهذا التفسير الكثير من المنزع ، بل إن كل مقدمة من المقدمات العشر جديرة بدراسة خاصة بها .

Ben Achour explanation faces miracles in the introduction to his interpretation of the tenth

Dr. Abd Al-star Fathil

Abstract

This paper is entitled (Ibn Ashour's interpretation of inimitability aspects) in his tenth introduction .It is an analytical study of what Ibn Ashour mentioned in the tenth introduction from Altahrir and Altanweer interpretation which handled the inimitability of the glorious Quran .